سيد قطب الأب الروحي لجماعات التكفير

هو الشخص الوحيد الذي اجتمعت عليه كل الجماعات الإسلامية، المسلحة منها، أو التكفيرية،أوالإخوانية، ويمكن أن ترى شوقيًا، أو قطبيًا، أو إخوانيا، أو شكريًا، يكفر أبيه وأمه، ويحكم على كل المجتمع بالكفر والضلال والجاهلية، إلا أنه يحكم على ابن قطب بالإسلام، وأكبر نقد يمكن أن يوجهه له، أنه كان (غير ملتحي).

هو الأديب الذي كتب في الفقه والفكر، وقرأ المودودي، وأصبح شارحًا لأفكاره، ومضيفًا عليها، حتى أنه أصبح بجد، مرجعية الجماعات التكفيرية في العالم.

ولد سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، في قرية «موشة» وهي إحدى قرى محافظة أسيوط بتاريخ ٩ / ١٠ / ١٩٠٦، وتلقّى دراسته الابتدائية في قريته، وفي سنة ١٩٢٠ سافر إلى القاهرة، والتحق بمدرسة المعلمين الأوّلية ونال منها شهادة الكفاءة للتعليم الأوّلى، ثم التحق بتجهيزية دار العلوم،

وفي سنة ١٩٣٢ حصل على شهادة البكالوريوس في الآداب من كلية دار العلوم. وعمل مدرسا حوالي ست سنوات، ثم شغل عدة وظائف في الوزارة، وعين بعد سنتين في وزارة المعارف بوظيفة «مراقب مساعد» بمكتب وزير المعارف آنذاك ـ إسماعيل القباني ـ، وبسبب خلافات مع رجال الوزارة، قدّم استقالته على خلفية عدم تبنيهم لبعض اقتراحاته.

أثرت والدة سيد قطب في شخصيته، وكانت عاملًا كبيرًا في تحولاته، فقد كانت دائمًا ما تشبهه بالعقاد، ولذا فقد كان يرى نفسه المعادل الطبيعي للعقاد، بل هو أفضل منه.

وهو الابن الأول لأمه بعد أخت تكبره بثلاث سنوات وأخ من أبيه غير شقيق يكبر. وكانت هى تريد منه أن يكون متعلمًا مثل أخواله. كما كان أبوه عضوًا في لجنة الحزب الوطني وعميدًا لعائلته التي كانت معروفة في القرية.

مرت أحداث جسام في حياة قطب ، ساهمت فيما بعد في اتجاهاته الفكرية، ومنها فشله في الزواج، ففي سن الرابعة عشر، عشق فتاة من قريته بأسيوط ، لكنه حينما انتقل إلى القاهرة ليكمل تعليمه في مدرسة المعلمين، عاد بعد أعوام ثلاث ليجدها متزوجة، وحين تخرج من الجامعة عام ١٩٣٣م، وعمل بوزارة المعارف في مطلع الأربعينيات، خفق قلبه من جديد، وخطب معشوقته، وفى ليلة حفل الخطوبة، سقطت من عين العروس دمعة فسألها عن السبب فأخبرته أنها كانت تعشق جارها الضابط في الجيش، فنضحت عليه كرامته،

وفسخ الخطبة.

كتب قطب قصته في قصيدة وسماها الكأس المسمومة وقال فيها:

سممت عيشي وأحلامي وأخيلتى وأنت شيطانة في سمت أملاك
وعشت أَرعاك في قلبي وأنت بلا قلبٍ يحسُّ ويرعى، كيف أرعـاك؟
مَن أنت؟ما أنت؟ إني حائر قَلق أأنت أسطورة في سفر أفـاك؟

اشتغل قطب بالصحافة، وكان غزير الإنتاج، يكتب المقالات الأدبية والنقدية والتربوية والاجتماعية والسياسية، في مجلة «الكاتب المصري» و«الكتاب» و«الوادي» و«الشؤون الاجتماعية» و«الأديب» و«الرسالة» و«الثقافة» و«دار العلوم» وغيرها، وقد اشرف على مجلتي «الفكر الجديد» و«العالم العربي».

واشتغل بالأدب، وساهم في تأسيس جماعة (أبولو) وكتب عن جميع كتب العقاد ومدحه لكنه في سنة ١٩٤٨ خرج نهائيًا من مدرسة العقاد.

تعرض للنقد الكبير بسبب هجومه المتواصل على الأدباء والشعراء، حتى أمير الشعراء أحمد شوقي لم يسلم منه، فقد كتب مقارنة بينه وبين عزيز أباظة، ورأى الأول صانع شعر لا شاعر، واستدل بمسرحيته «قيس ليلى» ورأى أن أحمد بك زكي قدَّس الأموات عندما رفع مسرحية شوقي عن مسرحية أباظة،

وأن مسرحية شوقي عملًا بدائيًّا متهافتًا من جميع الوجوه.

كتب يقول: ينصحون لي بالكف عن هذه الموازنات التي تثير الغيرة والخصومات.. أنا لا أؤمن بهذه النصائح التي تنشأ من تقاليد الصالونات.

لك يا جمال عبادتي لك أنت وحدك يا جمال

وأرى الألوهة فيك تُو حي بالعبادة في جلال

فإذا عَبدتُكَ لم أكنْ يا حُسْنُ مِنْ أهل الضّلال

في هذه الفترة انضمّ سيد قطب إلى حزب الوفد ثم انفصل عنه، وانضم إلى حزب السعديين ثم أصبح مع الضباط الأحرار وثورة يوليو، وكان يفاخر بقوله (الضباط الأحرار تلاميذي).

حصل سيد قطب على بعثة للولايات المتحدة في ٣ نوفمبر ١٩٤٨ م من وزارة المعارف للتخصص في التربية وأصول المناهج، وكان يكتب المقالات المختلفة عن الحياة في أمريكا وينشرها في الجرائد المصرية ومنها مقال بعنوان أمريكا التي رأيت يقول فيه «شعب يبلغ في عالم العلم والعمل قمة النمو والارتقاء بينما هو في عالم الشعور والسلوك بدائي لم يفارق مدارج البشرية الأولى بل أقل من بدائي في بعض نواحي الشعور والسلوك».

وفى أمريكا حدثت له الصدمة الأخرى، التي جعلته إخوانيًا، وهى

احتفال الأمريكيين بمقتل حسن البنا، مما أثر في نفسيته، وقرر التعرف على هذه الحركة عندما يعود إلى بلده.

كان محبًا لذاته، وفخورًا بنفسه، ويرى أنه مرشد ثورة يوليو ٥٢، وهم فهموا فيه ذلك، فتشاوروا معه في أمور كثيرة، وكان هو من أوعز إليهم بإعدام خميس والبقري، وتم تعيينه من قِبَل قيادة الثورة مستشارًا للثورة في الأمور الداخلية، وأوكلوا إليه مهمة تغيير مناهج التعليم، لكنه اعتبر ما كلف به صغيرًا على حجمه، فاختلف معهم، وحاول عبد الناصر أن يرضيه، فعرض عليه أن يكون وزير المعارف، ومدير الإذاعة، لكنه واصل الرفض.

استقال قطب من جميع مناصبه سنة ١٩٥٤، وبدأ يقترب شيئًا فشيئًا من الجماعة، فهي التي ستجعله مُرشدها الروحي،وتعطيه المنصب الذي كان يبحث عنه، وفي نفس السنة تم اعتقاله مع مجموعة كبيرة من زعماء «الإخوان المسلمين». وحكم عليه بالسجن لمدة ١٥ عامًا، لكن الرئيس العراقي عبد السلام عارف تدخّل لدى الرئيس المصري جمال عبد الناصر، فتم الإفراج عنه بسبب تدهور حالته الصحية سنة ١٩٦٤.

منذ سنة ١٩٥٣ وسيد قطب عمليا مع حركة الإخوان المسلمين، التي كلفته بتحرير جريدة «الإخوان المسلمين» وإلقاء أحاديث ومحاضرات إسلامية، خارج مصر في سوريا والأردن.

قال قطب للأستاذ سليمان فياض، (إن كل الناس تكتب في الأدب والنقد، ولكن ما يكتبه في الإسلاميات لا يستطيع أحد أن يكتبه)، وكما قلنا فقد وجد مبتغاه في الكتابة الإسلامية، ولقي التميز، حيث كانت كتبه تطبع بعشرات الآلاف من النسخ.

أوائل مؤلفاته هما كتابيه (التصوير الفني في القرآن الكريم) و(مشاهد القيامة في القرآن)، حيث تحدث فيهما ببلاغة الأديب، عن القرآن بأسلوب حديث جديد لم يتحدث به البلاغيون من قبل.

جاء فيما بعد مؤلفه الثالث «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، الذي يعتبر تحولا جديدا في فكر قطب؛ لأنه تنبأ بفئة جديدة تحمل الدين وتعمل من أجله.

اتجه سيد قطب إلى تفسير القرآن، وكانت كتابته أدبية في مجملها، وهذه هى مشكلته، إن الجماعات الدينية أخذت كتبه، وتصويراتها الفنية على أنها فكر، بينما هو كان يهتم بالمعنى بصورة أدبية.

ولقطب كتابات هامة ومهمة، منها ما كتبه (شذرات في التاريخ) ودعوته لتنقية التاريخ من العبث التراثي به، والمدسوسات والموضوعات به،لكن تسليط الجماعات الدينية الضوء على بعض المحاور من أفكاره، هو من صنع أمامنا الأب الروحي للتكفير في العالم.

كان قطب ينتقد بشدة عصر عثمان بن عفان، ويدافع عن علي

بن أبى طالب، ويهاجم معاوية بضراوة، ويكفّر أبى سفيان وعمرو بن العاص، ولعل هذا ما جعل مراجع الشيعة يقرّون بكتبه في كل مدارسهم الدينية.

يقول قطب: «نحن نميل إلى اعتبار خلافة علي امتدادًا طبيعيًا لخلافة الشيخين قبله، وأن عهد عثمان كان فجوة بينهما، فهو فهم كونه إمامًا يمنحه حرية التصرف في مال المسلمين بالهبة والعطية، فكان رده في كثير من الأحيان على منتقديه في هذه السياسة، وإلا ففيم كنت إمامًا؟»، كما يمنحه حرية أن يحمل بني معيط وبني أمية من قرابته على رقاب الناس وفيهم الحكم طريد رسول الله، لمجرد أن من حقه أن يكرم أهله ويبرهم ويرعاهم».

وانتقد بنى أمية قائلًا: «لقد اتسعت رقعة الإسلام في عهدهم، ولكن روحه انحسرت بلا جدال، وما قيمة الرقعة إذا انحسرت الروح، ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية، لكانت أيام أمية كفيلة بالقضاء عليه القضاء الأخير».

وأضاف: إن غلبة معاوية على علي، كانت لأسباب أكبر من الرجلين.. كانت غلبة جيل على جيل، وعصر على عصر، واتجاه على اتجاه.. كان مد الروح الإسلامي العالي قد أخذ ينحسر. وارتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذي رفعهم منه الإسلام، بينما بقي علي في القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضى بأن يجرفه التيار.. من هنا كانت هزيمته، وهي هزيمة أشرف من كل انتصار.

ما جعل لقطب سقطات في كتاباته الدينية، هو أنه لم يكن عالمًا بل أديبًا، استخدام نهج الأدباء في علم الفقهاء؛ فقال بقول المعتزلة (إن القرآن من صنع الله)، وكفّر أبى سفيان وقال: هو ذلك الرجل الذي لقي الإسلام منه والمسلمون ما حفلت به صفحات التاريخ، والذي لم يسلم إلا وقد تقررت غلبة الإسلام، فهو إسلام الشفة واللسان لا إيمان القلب والوجدان.

المعالم الفكرية لقطب، التي اجتمعت عليها كل الجماعات في العالم هى، جاهلية القرن العشرين، والاستعلاء الإيماني، والمفاصلة الشعورية مع الجاهلية، وجاء هذا كله مشورًا في كتاب في ظلال القرآن، وهذا الدين، ومعالم في الطريق.

في كتاب (هذا الدين) ركز على كيفية صناعة جيل قرآني فريد، أما «معالم في الطريق» فقد كتبه في السجن على شكل رسائل جمعت، وهربها عن طريق (شاويش) في سجن ليمان طرة، وصدرت في كتاب أيضًا، وهو الكتاب الأخطر لسيد قطب.

يقول في معالم في الطريق: «لا بدّ من قيادة للبشرية جديدة، إنّ قيادة الرجل الغربي للبشرية قد أوشكت على الزوال... لأن النظام الغربي قد انتهى دوره لأنه لم يعد يملك رصيدا من القيم يسمح له بالقيادة».

وفي موضع آخر يقول: «لقد اجتمع في الإسلام المتفوق، العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والاندونيسي والإفريقي إلى آخر الأقوام

والأجناس وتجمّعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية. ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما «عربية» إنما كانت دائمًا «إسلامية» ولم تكن «قومية» إنما كانت دائمًا «عقيدية».

وعن تصوره للدولة ونظام حكمها يقول: «ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولّى الحاكمية في الأرض رجال بأعينهم ـ وهم رجال دين ـ كما كان الأمر في سلطة الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة كما كان الحال فيما يعرف باسم «الثيوقراطية» أو الحكم الإلهي المقدس!! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مردّ الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبيّنة».

في سنة ١٩٦٥ اعتقل مرة أخرى بتهمة التخطيط لقلب نظام الحكم واغتيال جمال عبد الناصر، وقد كان بالفعل هناك تنظيم من تلاميذ سيد قطب هم من خططوا لذلك، ومنهم، يوسف هواش وعبد الفتاح إسماعيل، اللذان أعدما معه.

وقد صدر حكم الإعدام على سيد قطب بتاريخ ٢١ / ٨ / ١٩٦٦ وتم تنفيذه بسرعة بعد أسبوع واحد فقط (في ٢٩ / ٨ / ١٩٦٦) قبل أن يتدخّل أحد بالوساطة.

في ليلة تنفيذ الحكم، طلب منه أن يقبل أن يكتب التماسًا لعبد الناصر فرفض وقال: إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفا واحدا يقر به حكم طاغية.

لم يكن أحد ليروى ما جرى لقطب في غرفة الإعدام سوى، اللواء «فؤاد علام» الذي كان ضابطًا صغيرًا ساعتها، حيث قال: ان يوم إعدام سيد قطب لم يكن اليوم معلومًا لأحد، وكنت أجلس في السيارة الأولى وبجوارى سيد قطب، وفى الثانية كان يجلس محمد يوسف هواش نائي سيد قطب في قيادة التنظيم، وفى الثالثة كان يجلس عبد الفتاح إسماعيل المسئول عن الاتصالات الخارجية لجماعة الإخوان المسلمين، والثلاثة محكوم عليهم بالإعدام، وركب السيارات يتحرك بهم من السجن الحربي لسجن الاستئناف لتنفيذ الحكم فيهم، وكان سيد قطب يرتدى بدلة داكنة اللون تحتها قميص أبيض ويبدو بصحة جيدة فهو لم يتم ضربه أو تعذيبه كما أشاع الإخوان كما أنه لم يكن مجهدًا أو مرهقًا.

أضاف: قال سيد قطب خلال الطريق بنبرة تشف وحسرة: «للأسف الشديد لم ينجحوا في تنفيذ عملية نسف القناطر الخيرية التي لو تمت لانتهى النظام، وإن مشكلتي في عقلي لأني مفكر وكاتب إسلامى كبير والحكومة تريد القضاء على الإسلام عبر قتلى».

يضيف اللواء فؤاد علام: فهم سيد قطب من الإجراءات داخل السجن أنه سيتم إعدامه فازداد توتره، وأخذ يردد «أنا مفكر إسلامي كبير والحكومة لم تجد سبيلًا للقضاء على أفكاري لذا تعدمني، ثم بدأت مراسم تنفيذ الحكم فلبس سيد قطب بدلة الإعدام الحمراء وسُئل إن كان يريد شيئًا فطلب كوب ماء تجرعه ثم طلب أن يصلى الفجر ثم دخل غرفة الإعدام وتم تنفيذ الحكم.